الفصل الثالث

علم البديع

البديع لغةً: بَدَعَ يَبدَعه بَدْعاً وابتَدَعَهُ: أنشأهُ وبدأه، وأبدَعْت الشَيءَ اخْتَرَعَهُ لا على مِثالٍ سابقٍ... والبَدِيعُ من أسماءِ الله تعالى، والبديع: الجديد[1].

اصطلاحاً: هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة[2].

وأول من وضع هذا العلم هو عبد الله بن المعتز العباسي (ت ٢٧٤هـ)، وقد تابعه في وضع أصول هذا العلم، في عصره، قدامة بن جعفر الكاتب (ت ٣٣٧هـ)، ثم جاء بعدهما كثيرون ألّفوا في هذا العلم وزادوا فيه، منهم أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) وابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ) وغيرهما[3].

وهو ضربان: معنوي ولفظي[4].

فالبديع المعنوي ما كان التحسين فيه يرجع إلى المعنى والبديع اللفظي ما كان التحسين فيه يرجع إلى اللفظ لكنّنا في الحقيقة لا نستطيع أن نفصل

---

(١) لسان العرب: مادة (بدع).

(٢) التلخيص، ص٤٨، وينظر: البيان الحديث في علوم البلاغة والعروض، ص١٠٧.

(٣) التلخيص، ص١٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص١٧٦.

عملياً بين البديع اللفظي والبديع المعنوي، لأنّ كل نوع من البديع له علاقة وشيجة بالمعنى.

وقد تناول الشنقيطي هذا النوع من البلاغة في تفسيره للقرآن الكريم ومن أنواعه:

أولاً: التجنيس:

التجنيس لغةً: كل ضرب جنس، والجنس أعم من النوع، يقال: هذا يجانس هذا أي: يشاكله(١).

واصطلاحاً: عرّفه القزويني بقوله: «وأما اللفظي: فمنهُ الجناس بين اللفظين، وهو تشابههما في اللفظ، والتام منه أن يتفقا في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها» (٢). وهو من الفنون البديعية التي خصّها قسم كبير من المفسرين بالذكر(٣): «وهو ضرب من التكرار المؤكد للنغم من خلال التشابه الكلي، أو الجزئي في تركيب الألفاظ، فهذا التشابه في الجرس يدفع إلى التماس معنى تنصرف إليه اللفظتان بما يثيره من انسجام بين نغم التشابه اللفظي ومدلوله على المعنى»(٤).

وقد تنبه الدارسون إلى هذا النوع من الفن في كتب البلاغة والتفسير،

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٤٨٦/١، ولسان العرب: مادة (جنس).

(٢) التلخيص، ص٣٤٨.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٩٧/١٠، والبحر المحيط: ١٠/٩، والتسهيل: ١٦٧/٢، والإتقان: ٩٢١/٢، وقطف الأزهار: ٤١٢/١، و٥٠٣، و٦٧٢، والتحرير والتنوير: ٦٠٥/٣٠.

(٤) جرس الألفاظ، ص٢٨٤.

ولكن الذي ظهر لي أن الشنقيطي لم يهتم به، فجاء ذكره لَهُ قليلاً جداً في تفسيره ومقتصراً على نوع واحد من أنواعه، وذلك فقط في ما جاء أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف : ١٠٤].

قال الشنقيطي: «وبين قوله: «يحسبون، ويحسنون الجناس المسمى عند أهل البديع «تجنيس التصحيف» وهو أن يكون النقط فرقاً بين الكلمتين، كقول البحتري:

لم يكن المغتر بـــالله إذ ســـرى ليعجز والمعتـــز بـــالله طالبـــه

فبين «المغتر والمعتز» الجناس المذكور»[(١)].

ثانياً: المشاكلة

المشاكلة لغةً: جاء في مقاييس اللغة: «الشين والكاف واللام معظم بابه المماثلة. تقول: هذا شِكْلُ هذا أي مثله. ومن ذلك يقال: أمر مُشكِل، كما يقال: أمر مشْتَبِهٌ، أي: هذا شابه هذا، وهذا دخل في شكل هذا»[(٢)].

المشاكلة اصطلاحاً: وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً[(٣)]، وسمّاه الرماني بالمزاوجة[(٤)].

والمشاكلة نوعان: مشاكلة تحقيقية ومشاكلة تقديرية[(٥)].

---

(١) أضواء البيان، ص٧٤٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٣/٢٠٤، وينظر: لسان العرب مادة (شكل).

(٣) ينظر: مفتاح العلوم، ص٤٢٤، ومعترك الأقران: ١/٣١٢.

(٤) ينظر: النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل، ص٩٩.

(٥) التلخيص، ص٣٥٦، والإيضاح: ٢/٣٨٤.

وقد سار الشنقيطي على طريقة سابقيه في بيان حد المشاكلة وأمثلتها، وقد بين هذا المصطلح البلاغي في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: من الآية ١٢٦]، قال الشنقيطي: «أطلق -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة اسم العقوبة على الجناية الأولى في قوله: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ والجناية الأولى ليست عقوبة، لأنَّ القرآن بلسان عربي مبين، ومن أساليب اللغة العربية المشاكلة بين الألفاظ، فيؤدي لفظ بغير معناه الموضوع له مشاكلة للفظ آخر مقترن به في الكلام، كقول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخة ... قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

أي: خيطوا لي، وقال بعض العلماء: ومنه قول جرير:

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذه الأرامل الذكر

بناءً على القول بأنَّ الأرامل لا تطلق في اللغة إلا على الإناث.

ونظير الآية الكريمة في إطلاق إحدى العقوبتين على ابتداء الفعل مشاكلة للفظ الآخر، قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ [الحج: من الآية ٦].

ونحوه أيضاً قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] مع إن القصاص ليس بسيئة، وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٤] لأنَّ القصاص من المعتدي أيضاً باعتداء كما هو ظاهر، وإنَّما أدى بغير لفظه للمشاكلة بين اللفظين»[1].

(١) أضواء البيان، ص٥٦٠.

ثالثاً: التجريد:

التجريد لغةً: جاء في اللسان: «جرد الشيء: يجرده جرداً وجرّدهُ: قشره»[1].

والتجريد مصدر جردته من ثيابه إذا نزعتها عنه[2].

التجريد اصطلاحاً: فقد عرّفه القزويني (ت ٧٣٩هـ) قائلاً: «وهو أن يُنْتَزَعَ من أمرٍ ذي صفةٍ أمرٌ آخر مثلُهُ فيها مبالغة لكمالها فيه، وهو أقسام: منها نحو قولهم: (لي من فلان صديق حميم)، أي: بلغ فلان من الصداقة حداً صحَّ معه أن يُسْتَخْلَصَ منه صديق آخر مثله فيها، ومنها قولهم: لئن سألت فلاناً لتسألن به البحر»[3]. وفائدة هذا النوع البديعي المبالغة في الصفة الملاصقة الموصوف فقولنا: «لي من فلان صديق حميم». جردنا من الرجل الصديق آخر مثله متصف بصفة الصداقة.

وقد ذكر الشنقيطي هذا اللون من البديع ناقلاً لمقولة قالها مقيدة نقلها بدوره من الآلوسي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ١١]، فقال ما نصه: «قال مقيدة -عفا الله عنه-: هذا الجواب الذي ذكره الآلوسي يدخل في حد نوع من أنواع البديع المعنوي يسميه علماء البلاغة التجريد، فحد التجريد عندهم، هو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله فيها مبالغة في كمالها فيه، وأقسامه معروفة عند البيانيين. فمنه ما يكون التجريد فيه بحرف، نحو قولهم لي من فلان صديق حميم، أي:

---

(١) لسان العرب: مادة (جرد).

(٢) ينظر: أنوار الربيع: ١٥٣/٦، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٤٠/٢.

(٣) التلخيص: ٣٦٨، وينظر: خزانة الأدب: ٤٣٨/٢.

بلغ من الصداقة حداً صح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها مبالغة في كمالها فيه، وقولهم: لئن سألته لسَألت به البحر بالغ في اتصافه بالسماحة، حتى انتزع منه بحراً في السماحة، ومن التجريد بواسطة الحرف قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨] وهو أشبه شيء بالآية التي نحن بصددها، لأنَّ النار هي دار الخلد بعينها، لكنه انتزع منها دار أخرى، وجعلها معدة في جهنم للكفار تهويلاً لأمرها، ومبالغة في اتصافها بالشدة، ومن التجريد ما يكون من غير توسط الحرف، نحو قول قتادة بن سلمة الحنفي:

ولئن بقيت لأرحلـــن بغـــزوة تحوي الغنائم أو يموت كـــريم

يعني نفسه انتزع من نفسه كريماً مبالغةً في كرمه، فإذا عرفت هذا فالنار سميت الهاوية لغاية عمقها، وبعد مهواها. فقد روي أن داخلها يهوي فيها سبعين خريفاً، وخصها البعض بالباب الأسفل من النار، فانتزع منه هاوية أخرى مثلها في شدة العمق، وبعد المهوى مبالغة في عمقها، وبعد مهواها. والعلم عند الله تعالى»[1].

رابعاً: الالتفات:

الالتفات من الفنون البلاغية التي وقف عليها كثير من الدارسين قديماً وحديثاً وتعود الدلالة اللغوية لهذه اللفظة إلى قولهم: لَفَتَ وَجْهَهُ عن القَوم: صَرَفَهُ، والتَفَتَ التفاتاً... والتفَتَ إليه صرف وجهه إليه، ويقال: لَفَتَ فُلاناً عن رأيه، أي: صَرَفْتَه، ومنه الالْتفات[2].

والالتفات مؤشِّر دلالي بارز، اختصَّت به العربيّة من دون غيرها[3]، ذلك

(١) دفع إيهام الاضطراب، ص٣٨٤-٣٨٥، وينظر: روح المعاني: ٢١١/١٥.

(٢) ينظر: لسان العرب: مادة (لفت).

(٣) ينظر: المثل السائر: ١٨١/٢.

أنّه يقوم على مغايرة السياق التركيبي المتداول في بناء النص أو الجملة والعدول به إلى مستوى تركيبي آخر لفائدة اقتضتها دلالة ذلك السياق الجديد.

وعرف هذا الأسلوب من العلماء منذ عهد مبكر، وقد أدّى ذلك إلى افتتانهم به وتصرفهم فيه، حتى سمّيت بتسميات عدّة تكاد تتفق في المعنى اللغوي لهُ، فالفراء (ت ١٤٤هـ) سمّاه (الانتقال) في مواضع كتابهِ[١]. أمّا أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ)، فقد عدَّه باباً من أبواب المجاز، إذ أطلق عليه الترك والتحويل[٢]. وسمّاه ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) مخالفة ظاهر اللفظ معناه[٣]. وقد تناوله أغلب علماء العربية بتسميات مختلفة لكنها تدور في فلك واحد، وهو الالتفات أو العدول، وكفانا مؤنة الباحث قاسم فتحي عامر عندما ترجم للمصطلح تاريخياً في بحثه[٤].

وعلى الرغم من تلك التسميات المتعددة التي عرف بها هذا اللون دلاليًّا، حُدَّ بحدود لا تبتعد بعضها عن بعض في إعطاء المعنى الحقيقي والاصطلاحي له، ذلك هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، لأنّهُ ينقل فيه من صيغة إلى أخرى، كانتقالٍ من خطابٍ حاضرٍ إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل أو من مستقبل إلى ماضٍ»[٥]. وهذا هو المشهور وله فوائد منها: تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال،

---

(١) ينظر: معاني القرآن: ١/٦٠.

(٢) ينظر: مجاز القرآن: ١/٣١١، و٢/٢٣٩. وينظر: فن الالتفات في البلاغة العربية، ص١٣.

(٣) ينظر: تأويل مشكل القرآن.

(٤) ينظر: فن الالتفات في البلاغة العربية، ص١٣-٢١.

(٥) المثل السائر: ٢/١٨١، وكتاب البديع، ص٥٨، وفن الالتفات في البلاغة العربية، ٢٤.

لِما جُبِلت عليه النفوس من حُبّ التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد وهذه فائدته العامة[1].

أما الخاصّة فتختلف بخواص مجالاتها، وقد ذكرها الزركشي وهي بحسب الأغراض، منها للتعميم والتنبيه والتتميم والمبالغة والاختصاص والاهتمام والتوبيخ[2].

ولأهمية هذا الأسلوب في إعطاء النص إيحائيَّة عالية ودلالة قويَّة نجده كثيراً ما يتكرر في آيات القرآن الكريم مما جعل أكثر المفسرين يهتمون به اهتماماً ملحوظاً، إلا أن الشنقيطي لم يذكر من هذا اللون البديعي سوى نوعين اثنين من أنواعه، وهما:

١- الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

وجاء ذلك في معرفة تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾ [طه: من الآية ٥٣]، حيث قال الشنقيطي: «وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم، ونظيره في القرآن الكريم في «الأنعام»: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقوله في فاطر: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ [فاطر: ٢٧]، وقوله في «النمل»: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ

(١) ينظر: البرهان: ٣/٣٢٦، والإتقان: ٢/٩٠٢.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣/٣٢٥-٣٣٠.

بَهۡجَةٖ ﴾ [النمل: من الآية ٦٠].

وهذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم في هذه الآيات كلها في إنبات النبات يدل على تعظيم شأن إنبات النبات، لأنَّه لو لم يترل الماء و لم ينبت شيئاً لهلك الناس جوعاً وعطشاً، فهو يدل على عظمته -جل وعلا-، وشدة احتياج الخلق إليه ولزوم طاعتهم له -جل وعلا-»[1].

قال الزمخشري: «(فأخرجنا) انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لغة المتكلم المطاع، لما ذكرت من الامتنان والإيذان بأنَّه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شيء عن إرادته»[2]. وإلى ذلك ذهب أكثر المفسرين[3]، وذكر أبي السعود أنَّ الالتفات إلى المتكلم للتنبيه قائلاً: «وإنَّما التُفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة»[4].

٢- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

وذكر هذا النوع في قوله تعالى: ﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف: ٨]، قال الشنقيطي: «الضمير في قوله: «منهم» عائد إلى القوم المسرفين، المخاطبين بقوله: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٥]، وفيه ما يسميه علماء

(١) أضواء البيان، ص٨٤٣.

(٢) الكشاف: ٣/٧٠.

(٣) ينظر: على سبيل التمثيل: البحر المحيط: ٧/٨٤ ، روح المعاني: ١٦/٢٠٦، والتحرير والتنوير: ١٩/٢٨٦.

(٤) إرشاد العقل السليم: ٦/٢١.

البلاغة بالالتفات من الخطاب إلى الغيبة»[1].

و لم أجد أحد من المفسرين قال بهذا المعنى.

٣- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ١-٢]، قال الشنقيطي: «ثم هنا التفات من الغيبة إلى الخطاب، أي: فقولوا للذين عاهدتم من المشركين: سيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: اذهبوا في أرض الله مقبلين ومدبرين حيث ما أردتم، وأين أحببتم أن تتوجهوا، آمنين لا خوف عليكم، لا ينالكم منا سوء، لأنَّها أشهر أمان وإمهال لا ينالكم منا فيها سوء»[2].

وهذا ما ذهب إليه القرطبي قائلاً: «قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ﴾ رجع من الخبر إلى الخطاب أي: قل لهم سيحوا أي: سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحداً من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر»[3]. وتبعه الرازي والبغوي وابن الجوزي والآلوسي[4].

خامساً: اللف والنشر:

جاء في اللسان: «اللف: الصَنفُ من النَّاس من خيرٍ أو شرٍ، والتفَّ

---

(١) أضواء البيان، ص١٦٢١.

(٢) العذب النمير: ٥/٢١١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٨/٦٤.

(٤) ينظر: التفسير الكبير: ١٥/١٧٥، ومعالم التنزيل: ٤/٨، وزاد المسير: ٣/٣٩٣، وروح المعاني: ١٠/٤٣.

الشيء تجمع وتكاثف، والنَّشرُ، أنشر الله الرِّيح: أحياها بعد موت وأرسلها نشراً ونشراً»[1].

وقد ذكره القزويني[2] وابن حجة الحموي (ت ٨٢٧هـ)، قال الثاني: «الطيَّ والنشر هو أن تذكر شيئين فصاعداً إمّا تفصيلاً فتنص على كلّ واحدٍ منهما وإمّا إجمالاً فتأتي بلفظ واحد يشتمل على متعدد، وتفوّض إلى العقل رد كل واحد إلى ما يليق به، لا أنَّك تحتاج إلى أنْ تنص على ذلك ثم إنَّ المذكور على التفصيل قسمان: قسم يرجع إلى المذكور بعده على الترتيب من غير الأضداد، لتخرج المقابلة، فيكون الأول للأول، والثاني للثاني، وهذا هو الأكثر في اللَّف والنشر والأشهر، وقسم على العكس وهو الذي لا يشترط فيه الترتيب، ثقة بأنَّ السامع يرد كل شيء إلى موضعه تقدَّم أو تأخَّر»[3].

وقسّمه العلماء على ضربين:

الأول: أن يكون النشر على ترتيب اللّف.

الثاني: أنْ يكون النشر على غير ترتيب اللَّف[4].

وقد ذكر الشنقيطي اللف والنشر في تفسيره لكن أمثلته عليه قليلة جداً، كقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ

---

(١) لسان العرب: مادة (لف) و(نشر).

(٢) ينظر: التلخيص، ص٣٦١.

(٣) خزانة التلخيص، ص٣٦١.

(٤) ينظر: الإيضاح: ٣٥٥/٢، والتلخيص، ص٣٦٢.

فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٣٩-٤٠]، قال الشنقيطي: «وقد أشار -جل وعلا- في هذه الآيات الكريمة على إهلاك عاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، ثم صرح بأنَّه أخذ كلاً منهم بذنبه، ثم فصل على سبيل ما يسمى باللف والنشر المرتب، أسباب إهلاكهم فقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وهي الريح يعني: عاداً، بدليل قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٦]، وقوله: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، ونحو ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني ثمود، بدليل قوله تعالى فيهم: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧-٦٨].

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون، بدليل قوله تعالى فيهم: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ﴾ يعني فرعون وهامان بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء : ٦٦] ونحو ذلك من الآيات»[1].

سادساً: مراعاة النظير

جاء في اللسان: «والنظيرُ المثل وقيل المثل في كل شيء وفلان نظيرُك

(١) أضواء البيان، ص١٤٦٣.

أي: مثلك؛ لأنَّه إذا نظر إليهما الناظر رآهما سواءً»[1].

وقد ذكره القزويني بقوله: «ويسمى التناسب والائتلاف والتوفيق، وهو أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد»[2]. وهذا يعني أن يكون الكلام متناسباً متلائماً، لا تجد فيه لفظة نافرة، ولا كلمة شاذة، تأخذ كل كلمة فيه بعنق صاحبتها، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً[3].

وذكر الشنقيطي هذا اللون البديعي في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٧-١١٩]، قال الشنقيطي: «والظاهر أن الذي في هذه الآية الكريمة من البديع المعنوي في اصطلاح البلاغيين، وهو ما يسمى «مراعاة النظير»، ويسمى «التناسب والائتلاف. والتوفيق والتلفيق»، فهذه كلها أسماء لهذا النوع من البديع المعنوي. وضابطه: أنَّه جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد... وإذا علمت ذلك فاعلم أنَّه -جل وعلا- ناسب في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ بين نفي الجوع المتضمن لنفي الحرارة الباطنية والألم الباطني الوجداني، وبين نفي العري المتضمن لنفي الألم الظاهري عن أذى الحر والبرد، وهي مناسبة لا بالتضاد، كما أنَّه تعالى ناسب في قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ بين نفي الظمأ المتضمن لنفي الألم الباطني الوجداني

---

(١) لسان العرب: مادة (نظر).

(٢) الإيضاح: ١/١١١، والتلخيص، ص١٧٨.

(٣) دراسات منهجية في علم البديع، ص٦٩.

الذي يسببه الظمأ، وبين نفي الضحي المتضمن لنفي الألم الظاهري الذي يسببه حر الشمس ونحوه»[1].

وهذا ما ذكره الآلوسي قائلاً: «وقيل: كونه السائل وكان الظاهر عدم الفصل بين الجوع والظمأ والعري والضحو للتجانس والتقارب إلا أنَّه عدل عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبة أتم منها وهي أن الجوع خلو الباطن والعري خلو الظاهر فكأنَّه قيل لا يخلو باطنك وظاهرك عما يهمهما، وجمع بين الظمأ المورث حرارة الباطن والبروز للشمس وهو الضحو المورث حرارة الظاهر فكأنه قيل: لا يؤلمك حرارة الباطن والظاهر، وذلك الوصل الخفي وهو سر بديع من أسرار البلاغة»[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن : ٥]، قال الشنقيطي: «فإنَّ الشمس والقمر متناسبان لا بالتضاد»[3]، وهذا المعنى ذكره أغلب المفسرين[4].

واستشهد الشنقيطي أيضاً على هذا الأسلوب من الشعر العربي: «كقول البحتري يصف الإبل الأنضاء المهازيل، أو الرماح[5]:

كالقسي المعطفات بل الأسهم مبريـــــة بـــــل الأوتـــــار

---

(١) أضواء البيان، ص٨٨٩.

(٢) روح المعاني: ٢٧٢/١٦.

(٣) أضواء البيان، ص٨٨٨.

(٤) ينظر: الكشاف: ٤٤٣/٤ ، ومدارك التنزيل: ٣٨٣/٣، وأنوار التنزيل: ٢٧٣/٥، روح المعاني: ١٠٠/٢٧، وإرشاد العقل السليم: ١٧٧/٨.

(٥) أضواء البيان : ص ٨٨٨.

وبين الأسهم والقسي المعطفات والأوتار مناسبة في الرقة، وإن كان بعضها أرق من بعض، وهي مناسبة لا بالتضاد»[1].

سابعاً: المقابلة:

جاء في اللسان: «قابل بالشيء مقابلة وقبالاً: عارضه، والمقابلة المواجهة والتقابل مثله»[2]. وعرفها أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) بقوله: «المقابلة إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة والمخالفة»[3]. وجميع التعريفات تكاد تكون متفقة في المعنى العام. وقد أدخلها جماعة[4] في المطابقة وهو غير صحيح، فإنَّ المقابلة أعم من المطابقة وهي التنظير بين شيئين أو أكثر[5].

وذكر الشنقيطي هذا النوع من الأساليب البديعية في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ [الكهف : ٥٥]، قال الشنقيطي: «وقوله في هذه الآية الكريمة: «أو يأتيهم العذاب قُبُلاً» قرأه الكوفيون: وهم عاصم وحمزة والكسائي «قُبُلاً» بضم القاف والباء. وقرأه الأربعة الباقون من السبعة: وهم نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر «قِبلا» بكسر القاف وفتح الباء. أما على قراءة

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) لسان العرب: مادة (قبل).

(٣) كتاب الصناعتين، ص٣٣٧.

(٤) ومنهم القزويني قائلاً: «ودَخَلَ في المطابقة ما يُخَصُّ باسم المقابلة». (الإيضاح: ٣٢١/١).

(٥) ينظر: خزانة الأدب: ١٢٩/١.

الكوفيين فقوله: «قُبُلاً» بضمتين جمع قبيل. والفعيل إذا كان اسماً يجمع على فعل كسرير وسرر... وعلى هذا فمعنى الآية: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾، أي: أنواعاً مختلفة يتلو بعضها بعضاً. وعلى قراءة من قرؤوا «قبلاً» كعنب، فمعناه عياناً، أي: أو يأتيهم العذاب عياناً. وقال مجاهد -رحمه الله-: «قبلاً» أي: فجأة. والتحقيق: أن معناه عياناً، وأصله من المقابلة، لأنَّ المتقابلين يعاين كل واحد منهما الآخر. وذكر أبو عبيد: أنَّ معنى القراءتين واحد، وأنَّ معناهما عياناً، وأصله من المقابلة»[1]. وهذا المعنى ذهب إليه أكثر المفسرين[2].

ومن شواهد المقابلة في تفسير الشنقيطي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: من الآية ١]، ذكر المقابلة هنا بين «عدوي وعدوكم أولياء» فيه إبراز صورة الحال وتقبيح الفعل، لأنَّ العداوة تتنافى مع الموالاة والمساواة للعدو بالمودة[3].

ثامناً: التضمين:

ضمَّنَ الشيءَ الشيءَ: أودعه إيّاه كما تودع الوعاءَ المتاعَ، وقد تضمَّنَه هو، والمضمّن من الشعر ما ضمنته بيتاً[4]. ويطلق على أشياء:

أحدها: إيقاع لفظٍ موقع غيره، لتضمنه معناهُ، وهو نوع من المجاز.

---

(١) أضواء البيان، ص٧١٩. وينظر: مجاز القرآن: ٧٠/١.

(٢) ينظر : معالم التنزيل : ١٨٢/٥ والمحرر الوجيز : ٥٥١/٢ والدر المنثور : ٤٠٧/٥ والجواهر الحسان : ٤٢٨/٢ والبحر المديد : ٢٤٦/٤ واللباب لابن عادل: ٣٤٣٩/١١.

(٣) أضواء البيان، ص١٨٩٣ من التتمة.

(٤) لسان العرب: مادة (ضمن)، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٢٦٠/٢.

الثاني: حصول معنى فيه من غير ذكرٍ لهُ باسم هو عبارة عنهُ، وهذا نوع من الإيجاز.

الثالث: تعلّق ما بعد الفاصلة بها، وهذا مذكور في نوع الفواصل.

الرابع: إدراج الغير في أثناء الكلام لقصد تأكيد المعنى، أو ترتيب النظم، وهذا هو النوع البديعي[1]. والتضمين بلاغياً هو استعارة كلام الآخر وإدخاله في الكلام الجديد[2].

ومن شواهد التضمين التي تناولها الشنقيطي:

قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٤٥]، قال الشنقيطي: «واختلف العلماء في إعراب «السيئات» في هذه الآية الكريمة، فقال بعض العلماء: نعت لمصدر محذوف، أي: مكروا المكرات السيئات، أي: القبيحات قبحاً شديداً... وقال بعض العلماء: مفعول به لـــ«مكروا» على تضمين «مكروا» معنى فعلوا، وهذا أقرب أوجه الإعراب عندي... ذكر الوجه الأول الزمخشري، والأخيرين ابن عطية، وذكر الجميع أبو حيان في «البحر المحيط»»[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧١]، قال الشنقيطي ناقلاً كلام أبو حيان ما نصه: «قال أبو حيان في «البحر المحيط»: وضمن قوله: «ونجيناهُ معنى أخرجناه بنجاتنا إلى

---

(١) الإتقان: ٤٠/٢، ٥٦. وينظر: معترك الأقران: ٣٠٢/١.

(٢) ينظر: كتاب الصناعتين، ص٣٦، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٢٦٣/٢.

(٣) أضواء البيان، ص٥١٤، وينظر: البحر المحيط: ٤٧٩/٥.

الأرض، ولذلك تعدى «نجيناه» بإلى، ويحتمل أن يكون «إلى» متعلقاً بمحذوف، أي: منتهياً إلى الأرض، فيكون في موضع الحال، ولا تضمين في «نجيناه» على هذا»[1].

تاسعاً: تأكيد المدح بما يشبه الذم:

وهو من الفنون البديعية التي بحثها ابن المعتز (ت ٤٩٦هـ)، وتحدث بعض البلاغيين عنه تحت عنوان الاستفتاء[2].

وهو من الأساليب الخادعة، حيث يوهم صدر الكلام أنَّ عجزه من قبيل الذم فإذا به من قبيل المدح، وتسمية هذا اللون بتأكيد المدح بما يشبه الذم باعتبار الأعم الأغلب؛ لأنَّه يقع في غير المدح والذم[3].

ويعد تأكيد المدح بما يشبه الذم من البديع المعنوي، لأنَّه يزيد المعنى وضوحاً بعد شك، وجلاء بعد ظن، وقد ذكر الشنقيطي هذا الأسلوب مستشهداً بالشعر العربي وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣]، قال الشنقيطي: «أي: إلا تؤذوني في قرابتي التي منكم، وكان ﷺ له في كل بطن من قريش رحم، فهذا الذي سألهم ليس بأجر على التبليغ، لأنَّه مبذول لكل أحد، لأنَّ كل أحد يوده أهل قرابته وينتصرون له من أذى الناس.

وقد فعل له ذلك أبو طالب و لم يكن أجرأ على التبليغ؛ لأنَّه لم يؤمن.

---

(١) أضواء البيان، ص٩١٨، وينظر: البحر المحيط: ٣٠٥/٦.

(٢) ينظر: البديع، ص٣٣، والصناعتين، ص٣٢٤، والعمدة: ٤٨/٢.

(٣) دراسات منهجية في علم البديع، ص١٨٤.

وإذا كان لا يسأل أجراً إلا هذا الذي ليس بأجر تحقق أنَّه لا يسأل أجراً كقول النابغة[1]:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائـــب

ومثل هذا يسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وهذا القول هو الصحيح في الآية، واختاره ابن جرير»[2].

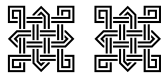

(١) ديوانه، ص٤٤.

(٢) أضواء البيان، ص١٦١٥، وينظر: الجامع الكبير: ٢١/٥٢٤-٥٢٥.